الساحر

أماني مسعودي ـ المغرب

لم أكن لأذهب ذلك اليوم... لو أني فقط لم أذهب..

ماذا كان سيحدث حينها، لو أني فقط طاوعت آلام دورتي الشهرية و لازمت غرفتي مع كأس الشاي الساخن..

أنت لا تعلم عدد المرات التي لعنت فيها كأس الشاي ذاك، حين خلصني من آلام الدورة و سمح لي بالذهاب، هناك، حيث ولادتي الأولى و مثواي الأخير، حيث أنت...

لست من نوع الرجال المفضل لدي، أقصد، جماليا، الذقن السوداء الكثيفة التي تشبه في ثورتها فنك المتمرد،الشعر المجعد الذي لا يتجاوب مع مثبتات الشعر القوية، لم أكن لأنجذب إلى كل هذا لو لم أذهب حينها...

ربما كنت سأنجذب إليك في شارع ضيق من مدينة داخلية ثائرة مثل فنك، ساحرة مثلك أنت، فقط لو كانت عيناك خضراء كوطني، كنت سأطلب لجوء إلى عينيك لأنه لم يعد أخضر

كان سيحدث هذا لو لم تكن عيناك بكل ذلك السواد، و ماذا أفعل أنا وسط السواد.. لا أعلم ما الذي جمعنا... أنا حقا لا أعلم ما الذي يجمع اثنين، لو دخلا صيدلية مثلا، كانت ستختار هي واقيا شمسيا، و سيختار هو واقيا ذكريا...

رغم هذا فقد انتابني هاجس قوي أقنعني بأنك الوجه الآخر لي، كنت الجنون و الثورة، السحر والضجيج، و كأنك استنساخ فني لروحي التي لم أحاول تحريرها مني، لكنك فعلت...

ستصدقني لو أخبرتك أنك حررتني من نفسي..؟

ربما لو قابلتك منذ زمن، لكنت أصبحت راقصة تعري لا تبرح الحانات مثلا،عذرا، ربما ليس لهذه الدرجة، لقد بالغت قليلا، بل كثيرا، لا أدري، إنك الآن تربكني كما في كل مرة،لقد أخطأت التعبير، حسنا، أظن أن التعبير لا يهم في مثل هذه الحالات، ما يهم حقا، أني أرتبك أمامك دائما

أتذكر لقائنا الأول و الوحيد و ربما الأخير أيضا، حين كنا في حلقة النقاش تلك، كنت سأتحدث عن جمالية الموضوع، لكن، وأنا في طريقي إلى الفكرة، قاطعتني جمالية نظرتك، رغم سواد العينين، و رغم أني لا أحب الرجل ذو العيون القاتمة ، حينها أدركت أن الحب لا يعترف بالألوان، و إنما بالطريقة التي ننظر بها إلى من نحب، لقد أدركت حقا كم كنت تافهة حين صنفت الرجال حسب لون عيونهم ، ماذا كان سيحدث لو لم أذهب ذلك اليوم..؟

لم أكن لأحبك.. لكني ذهبت، و أحببتك، و لعنت فنجان الشاي...

نيسان، يلاحقني هذا الشهر دائما، حكاياته معي لا تنتهي، إنه الشهر الذي يغري بكل شيء، الحب و السفر والفن، سأعتبر نفسي قوية لو أني أنهيت أيام هذا

الشهر دون أن يوقعني جنوني في المصائب كالعادة، لكنه هذه المرة، أوقعني فيك أنت، لا تظن أني هنا أشبهك بالمصائب، بل كن متأكدا من هذا، فلا فرق بينك و بينهم إلا في الاستمرارية، فأنا أنتهي من مصائبي و لا أنتهي منك...

وصلتني رسالتك حين أخبرتني أنك ستأتي، كان وقع الرسالة سيصبح أقل وطأة فقط لو لم أقرأها في ذلك الوقت المتأخر من الليل، و لسوء حظي أيضا أن المطر تحالف معك، و أنا التي لا تقاوم سحر المطر و ها أنت الآن تأتيني معه، ليمتزج سحريكما. فأهزم أنا...

كنت تعرف كيف تهزمني و أنني لن أنتظرك لو أخبرتني أنك ستأتي

لهذا أنت لا تخبرني أبدا، و لهذا، أنتظرك أنا دائما...

في المرة الماضية لم يتسنى لنا الحديث، باستثناء الكلمات التي تبادلناها حول العمل الفني، تبادلنا معها نظرات قصيرة، ثم بعض الابتسامات، و ربما كانت لتلحقها قبلات، لكني أعلم أن هذا سيكون مستحيلا و أنا محاطة بأصدقائي الحمقى. حين كاد يفلت مني كوب القهوة،

كان صديقي موسى بجانبي ينظر مذهولا إلى يدي التي ما انفكت ترتجف، كنت أخشى أن يكون قد اكتشف أمري و فهم سر ارتباكي، لكني استرجعت أنفاسي حين قال:

-القاعة باردة

ألم أخبرك أنهم حمقى.. هل علي في كل مرة أن أحب شخصا مثلك لتكون كل الأماكن دافئة، أم أن أحبك كل يوم، بشكل مختلف، في كل مكان أتواجد فيه؟

لقد رحلت بسرعة، و عاد البرد إلى المكان، لكن يدي لم تعد ترتجف فهمس صديقي بجانبي حين لاحظ هدوء يدي:

-لقد أصبح المكان دافئا.

كم تمنيت صفعه في تلك اللحظة... عدت إلى مدينتك الثائرة، فهدأت هي، واستيقظت بقلبي ألف مدينة ثائرة، هكذا أنت، ساحر دائما، تهدئ مدنا و تثير نساء، تغازل، تعترف، تعشق، ثم تختفي، و تعود كما لو أنك متأكد أن هناك من ينتظرك دون أن تخبره أنك ستأتي، تختار توقيتا مميزا تبعث فيه رسائلك ، ثم تأتي مع المطر...

تلك الليلة، كنت هنا، بيننا القليل من الأمتار ، طلبت مني الخروج، لا أعلم حقا كيف تجرأت على طلب كهذا، أكان جنونا منك، أم إيمانا بجنوني، أنفاسك بالمكان، و لكني أختنق حينها، الوقت متأخر من الليل، وأنت كالعادة بارع في اختيار أوقاتك " إن كنت عاجزة عن الخروج، فنامي إذن"

هذا ما قلت حين تأخرت في الرد.. كنت تعرف كيف تستفزني، أنا، تلك المرأة التي لا تؤمن بالعجز، كانت جملتك في ظاهرها عادية منطقية، لكنك تعرف جيدا أنها إذا وجهت إلى امرأة مثلي، لن تبقى الجملة عادية أبدا.

إنه أنت، ابن المدن الثائرة، تعرف جيدا كيف تستفز امرأة مثلي، و أنا لا أعلم حينها إن كنت خرجت أم نمت..

جميل أن ألتقيك تحت المطر،في وقت متأخر من الليل، الأمر يبدو كلاسيكيا جدا، لكنه ممتع، يا لعينيك الساحرة التي لم أكن لأحبها لو أننا تقابلنا صدفة في شارع ضيق، شفاهك شهية و أنا كامرأة لا أستطيع أن أهزم فضولي لأتذوق شيئا منها، و أنا كامرأة، علي أن أكون أكثر خجلا و تحفظا، و أنا كامرأة أيضا، علي أن لا أبادر بقبلة حتى لا أخالف القوانين، لكنني سيدة المخالفات، امرأة فوق القانون و يجوز لكل امرأة استثنائية أن تكون فوق القانون ، لهذا بادرت.

و لا أعلم حينها إن كنت خرجت أم نمت..

كنت مختلفا عن المرة الأولى التي رأيتك فيها ، لكنك تحمل معك الدفء كعادتك، و أنا رغم هذا، أرتجف بين ذراعيك

سألتني عن سر ضحكتي الخارجة عن الموضوع فقلت:

– لو كان موسى هنا و لاحظ ارتجافي لقال أن المكان بارد

ابتسمت، و كنت أعرف أنك لم تفهم شيئا و لا تعرف حتى صديقي موسى، لكنك لم تسألني، لأنك لا تحب الخروج عن الموضوع، فلنعد إلى موضوعنا إذن وسأسألك: هل أنا فعلا خرجت أم أني نمت..؟

مر الوقت و أنا أتساءل إلى أن فقدت الاتصال بك، يبدو أنك أنت من نام و كالعادة تأتي دورتي الشهرية في مواعيدي المهمة...

كنت في المكان الذي تقابلنا فيه أول مرة، كنت هناك من أجل الفن لا من أجلي، فأنت لا تكون لي إلا في وقت متأخر من الليل

هذه المرة، منعتني الدورة عن لقائك، و حين أخبرتك بهذا، كنت أعرف أنك أسأت فهمي، كنت رجلا ممنوعا من الحب، مسموحا للعلاقات العابرة، مقيد العواطف، محرر الرغبة و الشهوات، ظننت أني كنت سأقبل بعلاقة عابرة معك إلا أن الدورة أفسدت كل شيء، كنت تحلل الكلام حسب مفهومك و مقاييسك أنت، و كان هذا عيبك، سأخبرك لماذا أفسدت الدورة كل شيء:

لعلك لا تعلم أن المرأة في فترة كهذه يصعب عليها ترتيب شعرها لأنه سيبقى منكوشا دائما، وأن بعض البثور المتطفلة ستغزو وجهها لبضع أيام، وأنها لن تستطيع انتقاء ملابسها حسب رغبتها و أنها لن تكون جميلة كسائر الأيام

إذن يا ساحر دع تخمينك جانبا و ثق بأني لم أقابلك في تلك الفترة خوفا من أن لا تراني جميلة كعادتي، لا أكثر... هل أغضبك كلامي؟

لا بأس عليك أن تكون ديمقراطيا، ألم تكن أول من نادى بالديمقراطية، ألست ابن المدن الثائرة، فاغضب إذن.. بالمناسبة، كيف حال مدينتك اليوم، لقد سمعت في نشرات الأخبار أنها تنزف، ما كل هذا الوجع، لقد كتب على مدينتك

الشقاء، ما أضيق البلد و ما أوسع الثورة، لقد رأيت سياسيا فاسدا يضع "فولارة خضراء على كرسيه في مجلس النواب" و امرأة بورجوازية في إحدى البرامج الراقصة تعلق نفس الفولارة على صدرها، كانت جدتي تملك واحدة أيضا، أذكر جيدا في صغري حين كانت تنزعها، أحب رائحة الحناء فيها، ولا أظن أن الفولارة التي يضعها السياسي الفاسد و المرأة البرجوازية، تحمل رائحة الحناء كجدتي ورائحة التراب المغمس بالعرق و الدماء كنساء السبالة..

لعلك اكتسبت سحرك من هذا الوجع، أنت تأتي مع رائحة التراب، مع عرق الكادحات، مع غضب الجبال المطوقة ألغاما، فاغضب إذن يا ساحر

و إياك أن تجعل السياسي الفاسد يمسح غبار الملفات المنسية بالفولارة الخضراء

اغضب و إياك أن تجعل المرأة البرجوازية تسوق للفولارة الخضراء حتى يزداد ثمنها و تصبح من الماركات العالمية، فتعجز جدتي عن وضع الحناء، و تعجز نساء السبالة عن تغطية شيب أوجاعهن..

اغضب يا ساحر، و اترك امرأة مثلي تنتظرك اليوم و غدا دون أن تأتي

اغضب و عد إلى هنا و لا تخبرني

واتركني أنتظر نيسانا آخر، لعلك تأتي مع المطر...

لم أنم تلك الليلة، كان آخر يوم لك هنا، و الفرصة الوحيدة التي سأراك فيها قبل أن تغادر، احترت ماذا أرتدي..

غادرت ذلك الصباح بعد أن اخترت أنا فستاني الأحمر، كنت أجد الجميع دون أن أجدك أنت..

لا أرى الجميع و أراك أنت.. كنت الجميع و كانوا أنت...

قال لي رجل اعترضني في بهو القاعة:

- جميل فستانك، أنيقة أنت كعادتك

-عذرا سيدي، لكني لم أختره من أجلك أنت

نعم كان هذا ردي، بكل وقاحة

من أذن له باعتراضي وأنا في طريقي إليك، من سمح له بالتغزل بفستان ارتديته من أجلك أنت

لا أحب هؤلاء المتطفلون، قطاع طرق الحب، إنهم يفسدون كل شيء حين يخبروننا بما وجب أن يخبرنا به من نحب، إنهم يروننا في الوقت الذي يجب أن يرانا فيه من نحب..

لا أحبهم، لأنهم يشعروننا بفداحة غياب من نحب...

لكنك غادرت، و بقيت أنا وسط المتطفلين، يتغزلون بفستاني الأحمر...